

## مقدمة

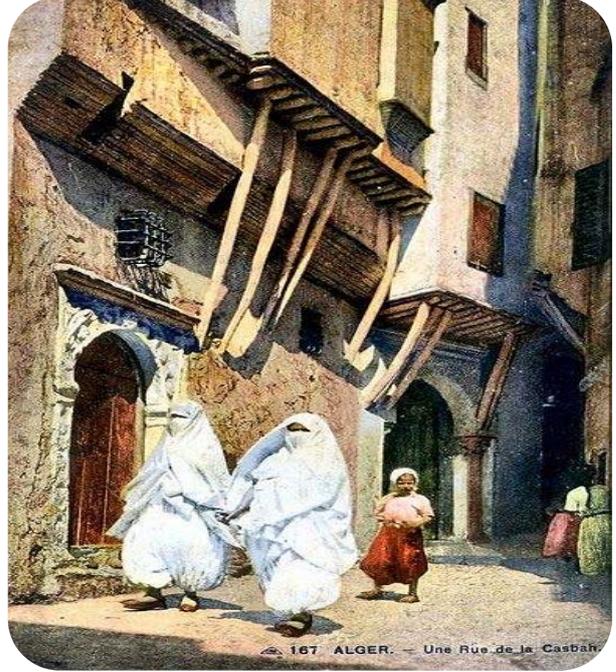
أدرك المستعمر الفرنسي منذ أن وطئت أقدامه أرض الجزائر خطورة الرسالة التي تؤذيها المساجد والكتاتيب والزوايا في المحافظة على شخصية الأمة ، فلم تكن هذه المراكز قاصرة على أداء الشعائر التعبدية فحسب ، بل كانت أيضاً محاضر للتربية والتعليم وإعداد الرجال المصلحين ، لذلك صبت فرنسا غضبها عليها بشدة ، فعمدت على إخماد جذوة العلوم والمعارف تحت أنقاض المساجد والكتاتيب والزوايا التي دُمرت ، فلم يبق منها سوى حجرات ضئيلة في بعض الكتاتيب ، دفعتها العقيدة الدينية ، فحافظت على لغة القرآن ومبادئ الدين الحنيف في تعليم بسيط وأساليب بدائية .

الجدير بالذكر ؛ أن بعض الطرق الصوفية قامت بدور إيجابي منذ بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر ، فقد ساهمت بعض زواياها في نشر الثقافة العربية الإسلامية ، كما قام كثير من رجالها بالتصدي للاستعمار والاستبسال في محاربتة ، وكانت الطريقة الرحمانية من أكثر الطرق التي تحارب البدع والخرافات وغير ذلك من أعمال الجاهلية الأولى ، والتي كانت سبباً في إطالة ليل الاستعمار المظلم في البلاد من جهة ، وتفرق صفوف الأمة وضلالها في الدين والدنيا من جهة أخرى <sup>(١)</sup> ، هذا بجانب الثورات المتتالية التي خاضها الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي مما أدى إلى فقدان الأمة لزهرة علمائها في ميدان الجهاد ، بالإضافة إلى هجرة كثير من المستنيرين حملة الثقافة العربية الإسلامية إلى المشرق العربي ، وإلى البلاد الإسلامية الأخرى ، يتحنون الفرص للرجوع إلى الوطن وتطهيره من المستعمر الأجنبي ، مما أدى إلي انتشار الجهل وتقشي الأمية بين أفراد الأمة ، وأثر سلباً على الحياة الفكرية في تلك الفترة الزمنية. <sup>(٢)</sup>

ومع إطلالة القرن العشرين بدأت الجزائر تعيش حركة فكرية شبه متواصلة مع الأقطار الإسلامية الأخرى ، سواء عن طريق الطلبة الذين اُبتعثوا للدراسة في جامع الزيتونة والأزهر والجامعات الإسلامية الأخرى ، أو عن طريق الدعوات الإصلاحية التي قامت في البلاد الإسلامية. وشارك الطلبة المثقفون بعد عودتهم إلى الوطن بجهود عظيمة للنهوض بالحياة الفكرية والدينية ، وقاموا ببناء المدارس في مختلف أنحاء الوطن ، وأصدروا الصحف والجرائد ، فأصلحو العقائد وصححو المفاهيم ، وأحبوا الشعلة التي أخمدها الاستعمار في نفوس الأمة .

وقد ظهرت في الجزائر خلال تلك الفترة صحافة وطنية عربية ، ساهمت مساهمة فعالة في بعث النهضة الفكرية والإصلاحية الحديثة وعالجت في صفحاتها كثيراً من الموضوعات الحساسة منها الدعوة إلى تعليم الأهالي رجالاً ونساءً ، وفتح المدارس العربية لأبناء المسلمين والتنديد بسياسة المستعمرين ، ومقاومة الانحطاط الأخلاقي والبدع والخرافات ، وبرز كتاب شاركوا بمقالاتهم وتحليلاتهم في تشخيص الداء الذي ألم بالأمة <sup>(٣)</sup> . وتم افتتاح العديد من المدارس للتدريس ونشر العلم ، واهتم الشيوخ بالتقرب من طبقة المثقفين التقليديين ، وتشجيعهم على القيام بمهمتهم كإقامة الدروس في المساجد والزوايا والاهتمام بالتأليف ونشر الكتب العلمية وكتب التراث مما كان له أثر هام على الحياة الفكرية في الجزائر. <sup>(٤)</sup>

# دور زعماء الإصلاح تجاه المرأة في الجزائر في العصر الحديث



## د. إيمان محمد علي نونو

دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر

إدارة ضمان الجودة للتعليم

الجيزة - جمهورية مصر العربية

mnnounou@yahoo.com

## الاستشهاد الرجعي بالقال :

إيمان محمد علي نونو ، دور زعماء الإصلاح تجاه المرأة في الجزائر في العصر الحديث. - دورية كان التاريخية. - العدد الثاني عشر ؛ يونيو ٢٠١١. ص ٩٨ - ١٠٠ .

(www.historicalkan.co.nr)



في عصر ابن باديس لم يكن يشجع تعليم البنات ولم يكن يتيح لها فرص التثقيف التي تؤهلها لوظيفتها الاجتماعية التي تنتظرها ، بل كثيراً ما كانت الفرص التعليمية المتاحة خاصة بالبنين ومقصورة عليهم في أغلب الحالات. وأقلق هذا الأمر ابن باديس كثيراً ، لذلك أبدى اهتمامه بموضوع تعليم المرأة ، لأنها شقيقة الرجل وتشكل نصف المجتمع ، وهي الركن الركين الذي يقوم عليه بناء الأسرة ، فإهمال تربيتها وتركها جاهلة هو هدم لهذا الركن ، وتقنيك لبنية الأسرة ، وإضعاف لقدرتها على الاضطلاع بمسؤوليتها التربوية والاجتماعية<sup>(٩)</sup> . وكانت المرأة قبل الإصلاح طاقة معطلة باسم الدين ، مكبلة بالقيود والأمية والجهالة ، فأولت جمعية علماء المسلمين الجزائريين اهتماماً بالغاً بالمرأة ، لتحتمل مكانتها في المجتمع إلى جانب أخيها الرجل ، وألقى ابن باديس خطاباً في حفل بمناسبة المولد النبوي الشريف في إحدى المدارس التي وجد فيها جمع غفير من النساء والفتيات ، ووجه كلمته لهن وقال: "إن المجتمع كالتائر ، لا يطير إلا بجناحين والمجتمع لا ينهض إلا بالجنسين هما" الرجل والمرأة ، " وفي نفس العام قام ابن باديس بهرسلة مديرة مدرسة بدمشق تابعة للجمعية ، وأبدى رغبته في إرسال فوج من الطالبات إلى سورية ليكملن تعليمهن بعد دراستهن الابتدائية في الجزائر<sup>(١٠)</sup> .

وتستننتج الباحثة مما يلي أن الفتيات في تلك الفترة دراستهن كانت مقصورة على المرحلة الابتدائية ، وفي الكتابات والزوايا فقط ، وبعد تلك المرحلة تتاهل الفتاة للزواج أو الركود في المنزل دون أدنى مشاركة عملية وعلمية تؤهلها للقيام بواجباتها الحياتية والمجتمعية .

وكرس ابن باديس جهوده للوقوف بجانب المرأة التي حاولت الآراء المتطرفة من سلخ مقوماتها وتجريدها من خصوصياتها ، ونبه العلماء وأولياء أمور البنات إلى أهمية التعليم للفتاة ، ضمن الإطار الحضاري الإسلامي ، لأن البنات المتعلمة تستطيع أن تبني أسرة منسجمة ومنماسة ، كما تستطيع أن تصون نفسها وتحفظ كرامتها ، وتضطلع بوظيفتها التربوية داخل الأسرة وفي المجتمع اضطلاعاً كاملاً<sup>(١١)</sup> . ووضح ابن باديس في رده على دعاء تحرير المرأة " بأن التحرير الحقيقي الذي يجب أن نسعى إليه هو تحريرها من الجهل فقال " إذا أردتم إصلاحها الحقيقي فارفعوا حجاب الجهل عن عقلها قبل أن ترفعوا حجاب الستر عن وجهها فإن حجاب الجهل هو الذي أضرها وظلمها<sup>(١٢)</sup> . وكل المفكرين الإصلاحيين اهتموا بنفس القضايا والتي تمثلت أساساً في التعليم ، اللغة ، المرأة ، والأسرة ، مما يدل على أهمية مؤسسات التربية التعليمية والعائلية في تحقيق الإصلاح<sup>(١٣)</sup> .

واهتم الشيخ ابن باديس بتعليم المرأة الجزائرية اهتماماً بالغاً وخاصاً ، لأنه يرى أن دور المرأة المتعلمة المتدينة مهم للغاية في تنشئة جيل مجاهد يحمل تبعات العقيدة ويضحي في سبيلها ، كما رأى أن جهل الأم من أهم أسباب الهزيمة التي حاقت بمجتمعاتنا الإسلامية ويقول في ذلك " إن البيت هو المدرسة الأولى والمصنع الأول لتكوين الرجال ، وتدين الأم هو أساس حفظ الدين والخلق . والحق ابن باديس القول بالعمل عندما تأسست جمعية التربية والتعليم ، وحرص ابن باديس كل الحرص على أن يكون تعليم البنات مجاناً ، وذلك تشجيعاً لهن على طلب العلم ، والاعتراف من مناهله<sup>(١٤)</sup> . إن ما وصلت إليه أوضاع الأمة الجزائرية من تدهور وتردي في ظل الاستعمار الفرنسي الغاشم ، لم يترك للإمام عبد الحميد بن باديس من خيار سوى الانطلاق في دعوته للعلم للمرأة والرجل على حد سواء .

ولعل مرسوم ١٣ فبراير ١٨٨٣ الخاص بتنظيم أمور التعليم في الجزائر والذي جعله المستعمر فرنسياً محضاً قد شمل كل جوانب التعليم ، وبالتالي كان هذا القانون وراء إنشاء نوعين من المدارس الأولى خاص بأبناء المعمرين والثاني بأبناء الجزائريين وكلاهما يتلقى تعليماً بالفرنسية ، مما جعل المثقفين والسيوخ والعلماء يبذلون اهتماماً باللغة العربية والهوية الجزائرية ، ويتمسكون بالوجود المادي والمعنوي للشعب الجزائري وخاصة بعد أن تعرض رجال الإصلاح وسيوخ الزوايا للتضييق والمراقبة والنفي والقمع<sup>(٥)</sup> . تلك العوامل ساعدت على قيام الحركة الفكرية الإصلاحية في الجزائر في الفترة التي ظهر فيها الشيخ عبد الحميد ابن باديس<sup>(٦)</sup> والتي توضح لنا طبيعة الوسط الثقافي والفكري الذي تربى وترعرع فيه ابن باديس .

لقد رأى عبد الحميد بن باديس أن العلم هو سلاح المقاومة المعتدى وطرده من أرض الجزائر لذلك اهتم به اهتماماً عظيماً وأولاه كل غاية ووقته وملكاته حتى وصفه المؤرخون بأنه " هو الذي ينشئ المدارس والمعاهد في طول البلاد وعرضها ، ثم هو الذي يمضي يومه كاملاً في حلقة الدرس يفتح الدروس بعد صلاة الفجر حتى الظهر ثم بعد صلاة المغرب إلى صلاة العشاء ، وإذا خرج من الدرس ذهب رأساً إلى إدارة جريدته (الشهاب) يكتب ويراسل ويحجب على الرسائل فيقضي موهناً من الليل حتى إذا نودي لصلاة الصبح كان في الصف الأول"<sup>(٧)</sup> . وقام الشيخ ابن باديس بتأسيس العديد من الجرائد والصحف لنشر مبادئه ومشروعه الفكري الإصلاحية ، ولكن السلطات الفرنسية قامت بمحاربتته وتبهدت لمشروعه الإصلاحية وتطلعاته الثورية ، كما إنها خشيت من انتشار الوعي الثقافي والإسلامي ، فعمت المدارس وراقبت العلماء مراقبة دقيقة وزجت في السجون من يخالف تصريحاتها وأوامرها<sup>(٨)</sup> .



ولم يبال الشيخ ابن باديس بل اهتم أهمية كبيرة بالتعليم والمعرفة ، ودعا الناس إلى تلقينها للناس باعتبارها مادة التربية ، وأداة التثقيف والتهديب ، وهي المعرفة التي ترسخ الإيمان وتعصم الاعتقادات من الانحراف ، والأخلاق من الفساد والفكر من الضلال ، وتفيد الإنسان في حياته الدينية والدينية ، والاتجاه الذي كان سائراً

## الهوامش

- (١) توفيق أحمد المدني: حياة كفاف ( مع ركاب الثورة التحريرية ) ج ٣ ، الشركة الوطنية للنشر ، الجزائر ، ١٩٨٢ ، ص ص ١٢-٣٢ .
- (٢) صالح خرفي: الجزائر والإصالة الثورية ، الشركة الوطنية للنشر ، الجزائر ، ١٩٧٧ ، ص ص ٥٣-٦٠ . للمزيد من المراجع أنظر: عمار هلال: أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة " ١٨٣٠ . ١٩٦٢ ، الجزائر ، ١٩٩٥ .
- (٣) عبد الله حمادي: الحركة الطلابية الجزائرية (١٨٧١- ١٩٦٢) ط ٢ الجزائر ، ١٩٩٥ ، ص ص ٢١-٤٢ .
- (٤) بسام العسلي: عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية ، دار النفائس ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ص ص ٧٥-٨٨ .
- (٥) بسام العسلي: المرجع السابق ، ص ص ٨٦-٨٩ .
- (٦) عبد الحميد بن باديس: ولد عام ١٨٨٩ بمدينة قسنطينة ، ونشأ في أسرة كريمة ذات عراقة مشهورة بالعلم والأدب ، وحفظ القرآن وهو في الثالثة عشر من عمرة وتعلم اللغة العربية والعلوم الإسلامية ثم سافر إلى تونس والتحق بجامعة الزيتونة وحصل على شهادة التطويب ثم عاد إلى الجزائر يحمل مشروعاً إصلاحياً طموحاً على أساس تصحيح عقائد الناس وأعمالهم ، والاهتمام بالتعليم وأسس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر ويعتبر رائد الحركة الإصلاحية الجزائرية .
- (٧) محمد فتحي عثمان: عبد الحميد بن باديس: رائد الحركة الإسلامية في الجزائر المعاصرة ، دار العلم ، الكويت ، ١٩٨٧ ، ص ص ٦٦-٩١ للمزيد من المعلومات عن الحركة الثقافية في شمال أفريقيا انظر المرجع التالي: أنور الجندي: الفكر والثقافة المعاصرة في شمال أفريقيا ، الدار القومية ، القاهرة ، ١٩٨٦ .
- (٨) محمود قاسم: عبد الحميد بن باديس: رائد الحركة الإسلامية في الجزائر المعاصرة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، ص ص ٢٢-٣١ .
- (٩) محمود قاسم: المرجع السابق ، ص ص ٣٣-٣٧ .
- (١٠) عمار الطالبي: ابن باديس حياته وآثاره ، الجزائر ، ١٩٦٦ ، ص ص ٥٢-٦٦ .
- (١١) محمد فتحي عثمان ، مرجع سابق ، ص ص ٧٣-٨٦ .
- (١٢) المرجع السابق ، ص ص ٦٥-٦٧ .
- (١٣) حسن حنفي: كبوة الإصلاح ، نموذج مصر ضمن الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر ، الرباط ، ١٩٨٣ ، ص ص ٧٠-٨٥ .
- (١٤) بسام العسلي : مرجع سابق ، ص ص ٨٦-٩٣ .
- (١٥) عمار الطالبي: المرجع السابق ، ص ص ٧١-٨٣ .

واتخذ ابن باديس من الجامع الأخضر معهداً لنشاطه العلمي والتعليمي والتربوي ، معتقداً بأن العلم هو وحده الإمام المتبع في الحياة ، في الأقوال والأفعال والمعتقدات ، ورغم الجهود الفردية التي كان يقوم بها ابن باديس في تلك الفترة ، إلا أنه كان يؤمن بوجود العمل الجماعي ، وإنشاء حركة منظمة تتولى انتشار هذه الأمة من وهدة الجهل والتنصير والفرنسة. وتعددت نداءات ابن باديس لجمع الطاقات وتوحيد الصفوف وتكاتف الجهود لتحرير الفكر من الجمود وتوجيهه إلى التطور والإصلاح متماشياً مع روح ومتطلبات العصر في إطار الدين الإسلامي<sup>(١٥)</sup>.

وترى الباحثة أن النظام الاستعماري الفرنسي قام على التجهيل والقضاء التام على الثقافة واللغة العربية ، وبالتالي على شخصية الجزائري الوطنية وقام بهدم المؤسسات الثقافية والتنكيل برجالها ، وأصبح التعليم العربي تعليماً تقليدياً يقتصر على حفظ القرآن الكريم من غير فهم أو وعي ، وحالت فرنسا بين العلماء والتدريس في المساجد وقامت بطردهم ونفيهم وسجنهم ، وبهذا حرمت أبناء الجزائر من مصادر تحصيل المعرفة ، كل ذلك تنفيذاً لسياستها في ضرب الحركة العلمية والثقافية في الجزائر وإحلال سياسة التجهيل والتخلف مكانها ، وحرمت البلاد من كل الروافد العلمية التي كانت تغذيها وبهذا ألحقت بها وبالشعب الجزائري أضراراً بالغة ، وجعلت ثقافة الشعب ولغته غير قادرة على مسايرة التقدم العلمي ، وألحقت فرنسا محلها الثقافة الفرنسية واللغة الفرنسية حتى تقضي على الهوية الوطنية للشعب الجزائري .

## خاتمة

وظلت أحوال المرأة في الجزائر أسوأ حظاً من جيرانها ، وانشغل الجميع الرجال والنساء بقضية تحرير الوطن والحركة الوطنية المسلحة بعد أن وقفت الدولة الفرنسية حائلاً لمعاني الحرية بشكل عام وحرية المرأة بشكل خاص ، وحتى لا يتداول مفهوم الحرية وينعكس على سياستها الاستعمارية ، هاجمت فرنسا تعليم المرأة واتبعت أساليب التضييق والتشديد على التعليم باعتبارها من المقومات الأساسية للشعب الجزائري. ونالت المرأة في الجزائر قسطاً بسيطاً من التعليم في محيط الأسرة وليس أكثر من ذلك ، وانشغلت بقضيتها الكبرى وهي تحرير الجزائر " الأم الكبرى " لأبناء شعبها وتضامنت مع الرجل من أجل إنقاذ الجزائر من براثن الاستعمار الفرنسي .